

# الأطفال أولاً



كريستيان ريو  
ترجمة: حسن بوجات

مؤمنون بلا حدود  
Mominoun Without Borders  
للدراسات والأبحاث [www.mominoun.com](http://www.mominoun.com)

الأطفال أولاً<sup>1</sup>

كريستيان ريو

ترجمة: حسن بوجات

---

1- المقال لـ «Christian Riou»، نشر يوم 26 أبريل 2019، على الجريدة الفرنسية «le devoir»، تحت عنوان: «les enfants d'abord». نقله إلى العربية: حسن بوجات. طالب في مدرسة لتكوين الأساتذة، شعبة الفلسفة.

هل تؤمن بالإله؟ يطرح هذا السؤال أحيانا من طرف طفل صغير أشقر يجلس في آخر الفصل. قد يطرح أيضا من طرف طفلة صغيرة، كتومة ومضطربة، تجلس في الصف الأول. لكم مرة على المعلم الذي أحدثك عنه أن يواجه هذا السؤال؟ عدد لا يمكن إحصاؤه من المرات. لكن في كل مرة إجابته تظل نفسها : ((ليس ما أومن به ذو أهمية حقا.))

إن المهم هو العودة بالطفل إلى الدرس الجاري، وإخباره بأن البعض يؤمن والبعض الآخر لا يفعل. في رأي الأستاذة الكيببكية<sup>1</sup> -التي أحدثك عنها، وليس استثناء أبعد من هنا - أن تطلع القسم عن معتقداتك الدينية أو عن غيابها هو أمر غاية في الوقاحة. إنه شكل من أشكال قلة الاحترام ناحية هذه العقول الشابة أثناء التكوين.

إن واجب الاحتياط هذا هو الذي عبر عنه «لويس جرمان» أفضل من غيره في رسالته الرائعة التي وجهها لتلميذه القديم «ألبر كامو» سنة 1959، الذي فاز قبل ذلك بعامين بجائزة نوبل للأدب.

((أعتقد أنني طيلة مساري، عملت على احترام أقدس شيء في الطفل: حق البحث عن الحقيقة الخاصة به. لقد أحببتكم جميعا، وأظن أنني قمت بكل ما بوسعي لكي لا أظهر أفكارني التي سنتقل كاهل عقولكم الصغيرة. عندما كانت المسألة تتعلق بالإله (ضمن البرنامج)، كنت أقول إن البعض يؤمن، والبعض لا يفعل، وأنه من حق الجميع القيام بما يريد. ونفس الشيء أفعله، عندما يتعلق الأمر بالأديان، كنت أقتصر على الموجودة منها، والتي تنتمي إلى من يرضيه ذلك.

ولكي أكون واقعيًا، كنت أضيف أن هناك أشخاصا لا يمارسون أي دين.))

إن المثير بالنسبة إلينا في هذا القول مع ما فيه من صراحة، أنه لم يتساءل ولو للحظة واحدة حول حق من حقوق المعلم، على عكس نقاشاتنا الغربية حول اللائكية التي تكون أحيانا منقلبة رأسا على عقب<sup>2</sup>، لم يورد النص إلا حقوق الطفل، والتي حددها في «البحث عن الحقيقة الخاصة به.» وكذلك واجب احترام «ذكاءاتهم الشابة.» السبب في ذلك بسيط، بالنسبة للويس جرمان فالمعلم اللائكي ليس له حقوق بل واجبات، وفي المقابل تبين نقاشاتنا حول العلمانية اهتمامنا بحقوق الراشدين، وتبين كذلك بشكل جلي الاعتبار المحتشم الذي نوليّه للأطفال.

هل من الضروري حقا أن نتذكر أن سلطة القاضي والشرطي وحارس السجن تمارس على أناس ناضجين ومحصنين؟ وما يضاعف سلطة الأستاذ هو كونها تمارس على أطفال تقتضي منا براءتهم وهشاشتهم الفكرية رعاية أكبر.

1- وردت كالتالي: Québécois، والمراد بها: الأستاذ الذي ينتمي إلى مقاطعة تقع شرق كندا، يغلب عليها الطابع الفرنسي.

2- «qui marche parfois sur la tete»

علاوة على ذلك، فحيث تحققت العلمانية، فإن أستاذ المدرسة العمومية هو الذي يرمز لها، قبل القاضي أو الشرطي أو حارس السجن.

ومن سوء معرفة حقيقة عمل الأستاذ اليومي، أن يتخيل هذا الأخير لا يمارس سلطة. وحتى أزمة السلطة التي تهز المدارس المعاصرة لم تغير الربط الذي كان بين المعلم والتلميذ، ولا سيما داخل الأقسام الصغيرة.

نستطيع أيضا القول إن الأستاذ يمتلك شيئا أكثر من السلطة بما أنه نموذج. فبعد أبيه، يمثل الأستاذ النموذج الراشد الأول بالنسبة إلى الطفل الذي لربما يغادر عائلته للمرة الأولى متجها إلى المدرسة. من سمع تلميذا في الابتدائي يتحدث عن معلمته، يعرف كيف يمكن أن يكون هذا الشخص [المعلم] في نظر الطفل، سيكون ذا طبيعة نصف إلهية. لدرجة أن الوالدين يخاطران بمناقضته.

لهذا السبب، كما خطه أحد القراء حديثا، فالأكثر توترا أمام معلمة محببة لن يكون الطفل الكاثوليكي ولا ذاك الذي يعيش في أسرة لا دينية. سيكون بالأحرى الصغير المسلم (وأبائه)، الذي لن يتمكن أبدا من الإحساس بالحرية في وجه أستاذه تؤكد قناعاتها الدينية بطريقة قطعية. ساخرين نقول إن المتدينات اللاتي كن لا زلن يدرسن خلال سنوات الستينيات لم يتبنّ دينهن أحد. ربما. لكن من كان يمتلك الشجاعة في أن يصرخ داخل قسمهن مؤكدا أن الله ليس موجودا، أو فقط لي طرح سؤالاً؟ هل نريد بجديّة الرجوع إلى هذه الحقبة؟

إن الاعتبار المحتشم الذي يوليه البعض للأطفال في النقاش الراهن يعزى أيضا إلى أن تصميم المدرسة مفتوح على كل الاتجاهات<sup>3</sup>. مدرسة حيث اللوبيات والإيديولوجيات والمعتقدات والآراء. ومع ذلك، لكي تلعب المدرسة دورها الحقيقي، يجب أن تكون الملجأ الذي يتيح لك التراجع والارتفاع. للمعرفة متطلباتها، وطقوسها.

إننا لا ندخل مدرسة كما ندخل قاعة المحطة، تحديدا كما لو أردنا أن نقرأ، يجب أن ننزل بأنفسنا. فنحن لا نستطيع التركيز؛ سواء داخل معرض أو فضاء تتزاحم فيه الحشود. لكي نقرأ، لا بد من مكتبة أين يفرض الهدوء، حتى لو كان ذلك مساسا بحقوق البعض. وبالمثل، يجب أن تكون المدرسة محمية، قدر الإمكان، ضد الضجيج المحيط الذي يدنو اليوم بالنشاز، وبالدرجة الأولى معتقدات وإيديولوجيات؛ وذلك قصد احترام ما أسماه لويس جرمان بالضبط، «أقدس ما في الطفل: الحق في البحث عن الحقيقة الخاصة به».

3- وردت كالتالي: «aux quatre vents». واللغة الفرنسية تحدد هذا التعبير فيما معناه: «partout et dans toutes les directions»

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun\_sm



مُهْمِنُون بِلا حُدُود  
Mominoun Without Borders  
للدراسات والأبحاث [www.mominoun.com](http://www.mominoun.com)

[info@mominoun.com](mailto:info@mominoun.com)  
[www.mominoun.com](http://www.mominoun.com)